الهوية والعُنف وتحديات العولمة

أ/عبد المجيد بلغيت ـ جامعة تلمسان

مقدمة:

لا شك في أنّ التداول الواسع الانتشار لمصطلح العولمة قد أثار ولا يزال جدلاً ونقاشاً منقطع النظير على كل الأصعدة وعلى مستوى مختلف مؤسسات البحث العلمي والأكاديمي ومراكز الدراسات.

وعلى الرغم من كون هذا المفهوم قد برز إلى مجال التداول والنقاش الفكري مع بداية العقد الأخير من القرن العشرين، إلا أنّ الجدل المرتبط بمضامينه ودلالاته لا يزال يحظى باهتمام كثير من المفكرين والباحثين.

فالمفهوم عندما ظهر في العقد الأخير من الألفية الثانية، إنما تم التعبير من خلاله عن بداية مرحلة تاريخية جديدة من تاريخ العلاقات الدولية؛ كان من أهم مظاهرها تفكك وانهيار منظومة إيديولوجية، كانت تشكل قوة عالمية فاعلة في توجيه مسار العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية.

إنّ العولمة باختصار هي ظاهرة اجتماعية إنسانية متعددة الأبعاد، تعبّر عن مرحلة تاريخية من مراحل تطور الاجتماع البشري الحديث، وهي تحديداً مرحلة ما بعد تفكك الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، وتطمح إلى التعبير عن طبيعة النظام العالمي الجديد الذي بدأ في التشكّل بعد حرب الخليج الثانية، التي تمثل حدثاً مهماً وفاصلاً في تاريخ العلاقات الدولية، بحيث بيّنت بوضوح أنّ العالم أصبح أمام واقع جديد ومختلف عما قبله، وأنّ توازن القوى قد تغيّر، وأنّ النظام العالمي ما بعد الحرب العالمية الثانية قد انتهى، وأنّ ثمة ظروفاً جديدة قد تهيّأت لإقامة نظام عالمي جديد، تحكمه مبادئ وقيم جديدة، وتهيمن عليه قوى عالمية كبرى.

لقد حظيت الأبعاد والآثار الاقتصادية والسياسية والإعلامية للعولمة بنقاشات مكثّفة ومعمقة، بينما لم تنل الآثار الثقافية والاجتماعية الحجم الكافي من البحث والدراسة، بسبب قوة تأثير العوامل الاقتصادية والسياسية في تشكل نظام العولمة، وهذا ما جعل التجليات الاقتصادية والسياسية أكثر بروزاً من غيرها، كما أنّ آثار العولمة وانعكاساتها السياسية والاقتصادية أكثر وضوحاً عن غيرها.

ولا يخفى أن العولمة كما أنها تطمح إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية، فإنها تطمح كذلك إلى فرض الهيمنة الثقافية من خلال عولمة الأنساق الثقافية الغربية، باعتبارها أنساق المجتمعات المتقدمة والسائدة في النظام العالمي الجديد.

إذن؛ العولمة الثقافية تطمح إلى إخضاع الهويات والثقافات في كل المجتمعات إلى هوية ثقافية واحدة، وهي بذلك تواجه ردات فعل قوية من قبل الثقافات المحلية، مما يتولد عنه حالات من العنف.

ثم إنّ محاولات الهيمنة التي تنتهجها العولمة تمثل استفزازاً مباشراً للهويات المحلية والخصوصيات الثقافية، مما ينشأ عنه بالضرورة نشوء أشكال من المواجهة الثقافية داخل المجتمعات المحلية، تتبنى في كثير من الأحيان أساليب تعبير ومواجهة عنيفة.

والتساؤل المركزي لهذه المداخلة يثير نقاشات أساسية حول المضامين الثقافية للعولمة والتحديات التي تفرضها على الثقافات المحلية، وطبيعة العنف الذي ينتج كرد فعل على محاولات الهيمنة الثقافية للعولمة.

أولاً: آليات التحول نحو نظام العولمة

مع نهاية الألفية الثانية شهد العالم تغيرات وتحولات عميقة على مستوى بنية النظام العالمي الذي كان سائداً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، مما خلق شعوراً عاماً لدى الكثير من الباحثين بأن النظام العالمي قد أضحى على أعتاب مرحلة جديدة تكاد تختلف تماماً من حيث خصائصها وسماتها العامة عن تلك المراحل التي تطور خلالها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وإثر ذلك، تم تداول مفهوم العولمة للتعبير عن المرحلة التاريخية الجديدة؛ حيث شهد العالم تطوراً هائلاً في وسائل الاتصال ونقل المعلومات، وسرعة تداولها عبر العالم وما ترتب عن ذلك من اختصار للزمن والمسافات بين مختلف بقاع العالم، والتوسع في الاعتماد الدولي المتبادل، وزيادة عدد الشركات المتعددة الجنسيات، وتوسع نشاطاتها، وتراجع دور الدولة وانحسار نفوذها، وتخلّيها عن بعض أدوارها لصالح مؤسسات وشركات خاصة.

من أوسع التعاريف انتشاراً للعولمة هو ما جاء في كتاب " العولمة " للباحث الأمريكي رونالد روبيرتسون، حيث عرّف العولمة بأنها "اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم، وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش" 1.

ويضع السيد ياسين ثلاث عمليات تكشف حقيقة العولمة: العملية الأولى تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس، والثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول، أما العملية الثالثة فهي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات 2.

إنّ الاقتناع بكوننا نعيش بالفعل في عصر العولمة، نشأ نتيجة تبلور مجموعة كبيرة من العوامل التي خلقت وهيّأت ظروف الانتقال والتحول إلى عصر العولمة، من أهمها:

ـ الثورة الهائلة في وسائل الاتصال ونقل المعلومات، وسرعة تداولها عبر الدول، وما ترتّب على ذلك من اختصار غير معهود للزمن والمسافات بين مختلف مناطق العالم، الأمر الذي جعل أفكارنا ومفاهيمنا عن الظواهر والأشياء تتأثر إلى حد بعيد بالأحداث الجارية والتطورات المتلاحقة على امتداد هذا العالم 3

لقد تركت نُظم الاتصال آثاراً مذهلة في طبيعتها وأهميتها وتداعياتها، ففي البلدان التي وصلت فيها البنية التحتية للاتصالات مرحلة متقدمة، تستعمل المنازل والمكاتب شبكة متعددة الوصلات مع العالم الخارجي، بما فيها الهواتف الأرضية والمحمولة، وأجهزة الفاكس، وأجهزة التلفاز الرقمية والعادية، والبريد الإلكتروني والإنترنيت باعتبارها أسرع ما تم اختراعه حتى الآن من وسائل الاتصال 4.

لقد عمّقت وسرّعت تكنولوجيا الاتصالات عملية العولمة، وأسقطت كل الأسوار التي كانت تفرض عزلة وانقطاع كثير من المجتمعات المنغلقة على ذاتها، وأصبحت مكرهة على الانفتاح والتفاعل مع العالم الخارجي.

ـ التقسيم الدولي للعمل، الذي أنتج ظاهرة الاعتماد الدولي المتبادل، بفعل تزايد نشاط الشركات المتعددة الجنسيات العابرة للقوميات، وهي شركات تنتج سلعاً مختلفة في بلدان متعددة، مما يتطلب فتح الأسواق العالمية على بعضها البعض، وكسر الحواجز التي تحول دون ذلك.

ـ تفكك الاتحاد السوفياتي وانهيار الشيوعية والأنظمة المرتبطة بها، مما دفع بكثير من بلدان العالم إلى التخلي عن عزلتها والاتجاه نحو الاندماج سياسياً واقتصادياً في الأنساق الغربية، من خلال تبني النمط الرأسمالي في الاقتصاد والآليات الديمقراطية في التداول على السلطة، وكل هذا نتج عنه اقتصادياً فرض آليات السوق وتحرير التجارة وخوصصة الشركات وتقليص دور الدولة، أما سياسياً فتوسيع مجال الحريات السياسية والمشاركة، ودعم مؤسسات المجتمع المدني ورفع رقابة الدولة عن أنشطتها.

ـ ظهور كيانات دولية مختلفة تطمح إلى التأثير في مسار الأحداث العالمية، منها تكتلات إقليمية ومنظمات دولية حكومية وغير حكومية.

كل هذه العوامل ساهمت بلا شك في انتقال المجتمعات البشرية إلى ما يُعرف اليوم بعصر العولمة أو نظام العولمة.

ثانياً: العولمة وأبعادها الثقافية

يشير مفهوم الثقافة إلى مجموعة القيم والأفكار والعقائد والعادات والتقاليد التي تميز مجموعة بشرية عن أخرى، مما يمنح كل مجموعة خصوصية ثقافية، تُكسبها مع مرور الزمن هوية خاصة ومستقلة.

لقد كان من نتائج انتهاء الحرب الباردة سقوط العامل الإيديولوجي كأحد محددات السياسة العالمية وبروز العامل الثقافي، بحيث أنتج الصراع الإيديولوجي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تشكّل ثنائية الغرب والشرق التي ظلّت ترسم العلاقات الدولية بين قطبين مختلفين، الأول غربي يتبنى الإيديولوجية اللبرالية الرأسمالية، والثاني شرقي يتبنى الإيديولوجية الاشتراكية الماركسية.

وبعد نهاية الحرب الباردة تم الترويج لنهاية الإيديولوجيا، وبدأنا ندرك أنّ خطاب العولمة الثقافية أصبح أكثر أهمية، وتوالت الجهود المبشرة بتقارب الثقافات والخصوصيات والهويات واحتكاكها، وتجاوز الفوارق بين الثقافات، واضمحلال الحدود والأسوار، لكن مآل هذا التقارب والاحتكاك الثقافي ما زال حتى الآن غامضاً وغير معروف، وإن كانت مقدماته حاضرة في حياتنا اليومية عبر وسائل الإعلام الناقلة للقيم الوافدة والثقافات الأخرى، وأبرزها الثقافة الغربية المادية والعلمانية التي تمجد قيم الاستهلاك والربح والأنانية والكسب السريع.

ثالثاً: العولمة والهيمنة الثقافية

رغم أهمية العوامل الاقتصادية والسياسية والتقنية في خلق ظروف العولمة الراهنة، إلا أنّ ثمة تزايد كبير في الاهتمام بالآثار الثقافية للعولمة، فقد أدى انتشار تكنلوجيا المعلومات إلى توسيع دائرة التفاعل والتواصل بين الشعوب ومختلف الثقافات، ولم يعد بإمكان المرء الانعزال والانقطاع عن ما يشهده العالم من أحداث وتحولات.

وهنا تبرز قدرة وسائل الإعلام والاتصال على توجيه أفكار الناس ومشاعرهم نحو التواصل والتفاعل مع القضايا العالمية، ونقلهم من الاهتمام بقضايا محلية داخل حدود دولتهم الوطنية، ونقلهم إلى أفق عالمية، أي نقلهم من مجتمعاتهم المحلية إلى المجتمع العالمي، وهذا ما يدفع بالناس إلى السعي لتشكيل هوياتهم عبر مصادر خارج أوطانهم.

تتجه العولمة نحو القضاء على السيادة الثقافية للأمم والشعوب وإزالة الخصوصيات التي تقف حجر عثرة أمام انتشار قيمها الجديدة التي تبشر بها، لتحل محلها ثقافة جديدة معولمة تهدف إلى تسليع القيم وتوظيف الإعلام لخدمة أهدافها. ولعل من بين السمات الحقيقية لثقافة العولمة هي بالتأكيد النسبية والتغير المستمر، لأن ثقافة العولمة ثقافة تركض وراء كل جديد في الأسواق العالمية، وهذه الأسواق هي التي تحدد القيم وليس العكس، وهذا يشير إلى أن هذه الثقافة مجردة عن المبدأ الأخلاقي الذي يشكل أساس أي ثقافة بانية ومؤسسة، لا ثقافة الهدم والخراب الإنساني، فلا مكان للقيم الروحية في هذه الثقافة السطحية المادية، بل قيم مادية متغيرة باستمرار يحكمها مبدأ الجديد في كل شيء، وتتعارض مع الأخلاق والأديان التي تؤكد على الثوابت الراسخة.

كانت المؤشرات في بداية التحول إلى عصر العولمة تنبئ بظهور تعددية ثقافية متساوية تشارك في التأسيس لقيم ثقافية عالمية، إلا أن الأيام أثبتت العولمة إنما تعكس الوضع الحضاري العالمي الذي يهيمن فيه النموذج الحضاري الغربي على غيره من النماذج.

وفي ظل هذه التحولات كثُر الحديث عن النهايات للإشارة إلى بداية انتقال العالم إلى عصر جديد بنظام جديد، فتحدثوا عن نهاية التاريخ التي تعني سيطرة النموذج

الرأسمالي على العالم بعد انتهاء الشيوعية. ونهاية الجغرافيا بتزايد نشاط الشركات العملاقة التي تجاوزت الحدود الجغرافية والتي تعادل ميزانية إحداها ميزانية العالم العربي. ونهاية الدولة، وهذا يتم من خلال استخدام الشرعية الدولية للتدخل في شؤون الدول الأخرى وضرب السيادة الوطنية من قبل الناتو. ونهاية الهويات، ومن ثم القضاء على الخصوصية بالنسبة للشعوب. أما خامس هذه النهايات؛ فهي نهاية الأيديولوجية (الدين).

هذه النهايات الخمس تشكل الأساس المذهبي للعولمة.

رابعاً: العولمة والعنف

إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو على الواقع مكتملة، فإن العولمة الثقافية تواجه صعوبات كبيرة في الوصول إلى عولمة العالم ثقافياً.

إنّ دول العالم التي تتدافع وتتنافس للأخذ بسلع ومنتجات وخدمات العولمة الاقتصادية تبدو أقل اندفاعاً وإقبالا، وحتماً أكثر تردداً وتمهلاً في اندفاعها نحو مفاهيم وقيم وأفكار العولمة الثقافية، والتي تروج عبر الفضائيات، ومن خلال آخر تقنيات وسائل الاتصالات والمعلومات، إن معظم المجتمعات والشعوب تبدو غير مطمئنة من العولمة الثقافية وغير واثقة من كيفية التعامل معها 5.

تسعى العولمة إلى صهر الثقافات الموجودة في ثقافة واحدة هي الثقافة الغربية وبالذات الأمريكية، وجعلها النموذج العالمي مستغلة التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات، وما ترسله عبر الفضائيات من سيل جارف من المواد الإعلامية، وتفريغ العالم من الهوية الوطنية والقومية والدينية.

كما تسعى إلى تفكيك البنى الاجتماعية والتشكيك في القيم الثقافية المحلية، وتستعين بآليات سياسية واقتصادية من أجل إضعاف دور الدولة تسهيل العبور للشركات العالمية الكبرى لإخضاع الشعوب.

إنّ التوسع في الانفتاح العالمي، بفضل تطور تكنلوجيا الاتصالات، أضعف من آليات الضبط الاجتماعي التي كانت تمارسها المجتمعات والثقافات، مما أفقدها السيطرة على كثير من الجرائم ومظاهر العنف، فقد أتاحت التكنلوجيا وسائل جديدة للمجرمين واللصوص وتجار المخدرات ؛ حيث إن توحد السوق وضخامة ما يضخ فيه من مال يغطي عمليات السرقة وغسيل الأموال، فتكثر عصابات المافيا وأساليب الاحتيال.

إن تكنلوجيا المعلومات لم تقتصر على تسهيل الأنشطة الإجرامية ولا في الترويج للعنف فحسب، بل استحدثت أنواعاً وأشكالاً جديدة لم تكن معروفة من قبل، ومنها:

- اختراق المواقع الإلكترونية الخاصة، والتنصت على المكالمات أو الاتصالات.
- الهجوم على نُظم الاتصال والتواصل، عن طريق هجمات فيروسية.
- سرقة الخدمات الاتصالية، مثل التلاعب بحسابات الهاتف، واختلاس الأرصدة، ومهاجمة حسابات البنوك والمؤسسات المصرفية.

ـ الاعتداء عل حقوق الناشرين والمخترعين، من خلال تحميل مواد علمية وفكرية من دون الاعتراف بملكية مؤلفيها وصانعيها.
ـ الترويج للمضامين الإباحية، مما يترتب عليه مخاطر أخلاقية وتربوية.
ـ الترويج للدعوات العنصرية المتطرفة، وما يتبع ذلك من استخدام للعنف.
ـ انتشار أعمال التبييض الإلكتروني للأموال من أجل تمويل الأنشطة الإجرامية.
ـ استخدام وسائل الاتصال لتخطيط وتنفيد الجرائم.
ـ توسع استخدام الانترنيت للدعاية لمشروعات استثمارية وهمية، والترويج لسلع مزيفة.

الهوامش:

1 نقلا عن عبد الخالق عبد الله: العولمة جذورها وكيفية التعامل معها.عالم الفكر،المجلد 28 العدد الثاني.1999 ص 52.

2 السيد يسين: في مفهوم العولمة. المستقبل العربي.عدد 129 أكتوبر 1998، ص 7.

3 علي الدين هلال. النظام الدولي الجديد: الواقع الراهن واحتمالات المستقبل. مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث والعشرون، العدد الثالث، يناير/مارس، سنة 1995، ص 13.

4 أنتوني غدنز. علم الاجتماع. ترجمة: فايز الصُّياغ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص 120.

5 عبد الخالق عبد الله. العولمة جذورها وكيفية التعامل معها.عالم الفكر، المجلد 28 العدد الثاني، 1999 ، ص 75.